

مثل هذه الساعة من النهار . أين تذهب؟! لا أعرف
تماما . لعلها تعبر الشارع وسكة القطار المهجورة
والبيوت المقابلة لتنتشر في البساتين المطلة على النهر
وراء البيوت . أو ربما هي ترحل صوب مركز المدينة .
انني أبدأ نهاري - وانتهيه - مثل كل يوم .. مثل
أمس - وأمس الاول ، واليوم الذي قبله .

الوجة الاولى

الشارع يكاد يكون خاليا .

سيارات منفردة تخطف باتجاه مركز المدينة في
فترات متباعدة . أسمع دويها المكتوم المقترَّب قبل أن
يومض زجاجها تحت أشعة الشمس في مدخل الشارع .
ويرتفع الدوي وصوت احتكاك العجلات على الاسفلت
وهي تقترب . ثم تمرق الكتلة من أمامي في اندفاعها
العجول تسحب هديرها معها . ويخلو الشارع من الكتلة
والصوت مرة أخرى حتى تفتح سيارة ثانية ، أو ربما
سيارتان في وقت واحد . وعندئذ لا بد أن يحصل بين
السيارتين سباق . (أقول « لا بد » ، لانني طوال
جلساتي اليومية ما رأيت سيارتين تدخلان الشارع
وتجدانه مفتوحا أمامهما ولا تتسابقان - باستثناء حالات
نادرة لا تستحق الذكر كان أحد السائقين أو كلاهما
لا يبديان فيها الرغبة في وضع قدراتهما الميكانيكية على
المحك) . وتندفع السيارتان المتسابقتان ، سطحاهما
الثقيلان يلمعان في الشمس .. الواحدة وراء الأخرى ،
ثم تتجاوزان .. تنطلقان جنبا الى جنب في رفقة
متناحرة .. تكادان تتلامسان في اندفاعهما الوحشي ..
ثم يرتفع هدير ماكنة احدهما وهي تسبق الأخرى
منتصرة باذلة أقصى جهدها الآلي ، وتصغر وهي تختفي
في البعد ، تتبعها الثانية مفتازة في محاولة يائسة
للحاق بها ، ثم تختفي هي الأخرى . في مثل هذا الوقت
من النهار لا أستطيع تمييز الوجوه ، فاللامح لا تبين .
انني أرى فقط كتلا مندفعة من الحديد والزجاج اللامع ،
وأشهد عجلات مطاوية تصرخ فوق اسفلت الشارع ،
والمح في العتمة وراء زجاج النوافذ رؤوسا بشرية ..
كريات سوداء تنتصب متحفزة ، وأحيانا شظايا من
أكتاف وأذرع . لكن هذا لا يدوم طويلا إذ لا يلبث أن
يبدأ السيل المنهمر من الضواحي بالتدفق ، ويفيض
ليملأ الشارع الطويل حتى ضفتيه - قاطعا الطريق على
السيارات القليلة القادمة من الاتجاه المعاكس - وتندحر ،
صوب مركز المدينة ، خمسة خطوط طويلة متجاورة من
سيارات من كل صنف وشكل ولون : رينو ، تويوتا ،
مرسيدس ، بيجو ، أودي ، شفروليه ، فولغا ، هلمن ،
سيمكا ، أوستن ، فولفو .. الخ ، كبيرة ، صغيرة ،
مستطيلة ، عريضة ، مربعة .. بيضاء ، حمراء ،

عنت الزجايات

مهدى عيسى الصقر

عليّ أن أقول في البدء - لكي لا يفاجأ أحد بعد
ذلك - انني لا أقوى على المشي ، وانني ، منذ الحادثة ،
أقضي معظم ساعات نهاري مشدودا الى هذا الكرسي
المعدني ذي العجلتين الكبيرتين ، جالسا في الظل
الكثيف لشجرة الكالبتوس الضخمة - التي زرعتها جدي
عند باب الدار - أرقب السيارات والمارة بذهول مريض
في طور النقاها ، يتأمل الأشياء من حوله بنظرة ساهمة
متأنية ، وبعجب شيخ يجلس مسترخيا في عربة يجرها
حصان عجوز عبر دروب مدينة غريبة . الشارع الذي
يطلّ بيتنا عليه هو أحد المداخل الكثيرة الى مركز
المدينة المزدهم الصاخب ، عرضه أربعون مترا ، وعلى
أحد جانبيه صف طويل من البيوت الواطئة يتوسطها
بيتنا ، وعلى الجانب الآخر سدة ترابية مرتفعة تتمدد
فوقها سكة قطار مهجورة منذ زمن ، تبدو وراءها
الأجزاء العليا لعهد من البيوت الحديثة بأشجارها
الخضراء وواجهاتها الملونة . انني أبدأ نهاري في
السادسة والنصف ، قبل أن يبدأ الموظفون أعمالهم
بوقت طويل . أغصان الشجرة الطويلة تهتل فوق
رأسي في صمت ، فالعصافير قد غادرت أوكارها في

يسند بندقيته الى حافة النافذة . ينحني وراءها ، يغمض احدي عينيه وهو يصوب الفوهة نحوي . يضغط باصبعه الصغير على الزناد ويطلق زخعة من رصاصه المائي عليّ . يركرك منتصرا وهو يتطلع الى وجهي المباغت المبلى ، وتتحرك السيارة به ببطء . أمسح وجهي المفسول براحة يدي وأنا أتابع وجهه الضاحك المتعد ويده الممدودة بالبندقية خارج النافذة وهو يرش رصاصه البارد على جذوع الاشجار وسيقان المارة وأحجار الطريق .

وتتسارع حركة السير ، ويواصل التيار جريانه نحو قلب المدينة . وتخطف وجوه الصغار المحصورة في الصناديق المتحركة ، ولا أعود أميز ملامحها . وعندما تقارب الساعة التاسعة يأخذ السيل بالنضوب وتتحسر الموجة . سيارات قليلة تمرق منفردة بين فترة وأخرى في سرعة مجنونة !

الموجة الثانية

موجة سوداء . سلسلة من التلال المتحركة . جدار طويل من سيارات الحمل الكبيرة يحجب عن عيني السدة الترايبية التي تنام فوقها سكة القطار المهجورة ورؤوس البيوت في الجانب الآخر من الشارع . سحب من الدخان الاسود وهدير محركات ضخمة يرج الارض ويفعرنني فلا أعود أسمع شيئا آخر . ويمتلئ الهواء برائحة الكاز المحترق والتراب وما تحمله السيارات الكبيرة من بضاعة حية وميتة وهي تمضي بها بسرعة صوب مركز المدينة : بصل ، خراف ، اسمنت ، حديد ، خشب ، تلفزيونات ، رمل ، أكياس لا تعرف محتوياتها ، ثوم ، سماد حيواني ، حصى ، قناني غاز ، طابوق ، صناديق لا تعرف محتوياتها ، جواميس سوداء بأنوفها الرطبة ، عيونها الكبيرة تتطلع في حياض ، من فوق ظهر اللوري ، الى الاشياء الهاربة من حولها ، غلب كرتونية لا تعرف محتوياتها ، خس ، مجمدات .. الخ .

من مكاني تحت الشجرة لا أستطيع أن أرى وجوه سائقي السيارات التي تمرّ من أمامي ، فهم يجلسون في قمراتهم العالية ، لكنني أستطيع أن ألمح هياكلهم المتأرجحة في العتمة وراء زجاج السيارات المقبلة من بعيد ، وأتخيل أذرعهم المفتولة وهي تتشبث بالمقود ، وعيونهم المتيقظة شاخصة الى الطريق .

ويستمر هدير السيل المدخن الاسود ترصعه هنا وهناك سيارات صغيرة ملونة ، تخطف بالاتجاهين ، ثم تهدأ حدة الموجة الثانية مع اقتراب الظهيرة ، ويتكشف الجانب الثاني من الشارع ، وتبدو واجهات البيوت المقابلة ، ورؤوس الاشجار ، وقضبان سكة الحديد التي تومض في الشمس .

صفراء . زرقاء . سوداء . فضية . ذهبية . رمادية بسقف ابيض ، سماوية بسقف اسود .. نهر من السيارات الملونة المتحركة . وتتضح ملامح الركاب بعد ان تصبح السرعة متمردة في الزحام ، وتتعري الوجوه .. وجوه شرسة بملامح صخرية ، وجوه مفرورة بنظرات متعالية مشمئزة ، وجوه ذاهلة بنظرات شاردة تنزلق على الاشياء المحيطة دون ان تراها ، وجوه مستسلمة ، وجوه حاملة . وجوه ثرثارة ، وجوه نعلانة ، وجوه تعبانة ، وجوه مخمورة .. وجوه وجوه وجوه .. وجوه شاخصة تتأرجح وراء الزجاج . لكنني في الحقيقة لا أهتم لوجوه الكبار . فهؤلاء أعرفهم . أنسي أبحث في النوافذ عن وجوه الصغار ، فهذا السيل الحديدي يحمل في جوفه أطفالا .. وجوه مستديره صغيرة تطلّ مبهورة حائرة من النوافذ ومن وراء الزجاج .. أطفال من مختلف الاعمار ، يحتضنون لعبهم في حرص : عرائس وارانب وأحصنة ونمور ومسدسات وبنادق بلاستيكية . انهم يؤخذون - عنوة - في الصباح ليتركوا في دور الحضانة ، ورياض الأطفال . وبيوت الجداد والاقارب ، ريثما ينتهي الكبار من أعمالهم اليومية .

ويتباطأ السير . ثمة اختناق في مكان ما في الامام بسبب الزحام في مفترقات الطرق . السيارات تتحرك على مهل ، وتضطر الى الوقوف بين فترة وأخرى . أرى في سيارة صغيرة محشورة وسط النهر طفلا صغيرا يقف في الحوض الخلفي وراء ظهر والديه يحاول أن يطول حافة النافذة فيظهر شعر رأسه الاسود والجزء الاعلى من وجهه : عيناه الصغيرتان اللامعتان تطوفان مبهورتين فوق الحديد والزجاج اللامع من حوله . وفي النافذة الخلفية لاحدى السيارات المتقدمة وجهان صغيران متجاوران .. مثل جروين ابيضين - لعلهما توأمان فهما يتشابهان - يحدقان أمامهما الى الحشد الحديدي الهادر بنظرات مندهشة ثابتة . وهناك في مربع احدي النوافذ المقترية ببطء على حافة النهر ، يلوح وجه رضيع تحمله أمه على صدرها ، رأسه المدور الصغير يحجب النصف الاسفل من وجهها تاركا للعيون نظارتها السوداء الكبيرة ، وجبينها الابيض العريض ، وطرفا من شعرها الاشقر (المصبوغ أو ربما المستعار) . يد الرضيع الدقيقة مرفوعة الى فمه ، فالعالم أصبح مورد صغير يمتصه بين شفثيه الرطبتين . ويذحف السيل بضع دقائق مبتعدا بالوجوه الصغيرة ، ثم يتوقف مرة أخرى . ويواجهني طفل في نحو الخامسة يحمل بندقية بلاستيكية زرقاء . تسقط نظراته المستكشفة على الكرسي ذي العجلتين الكبيرتين ، يتفحصه بنظرانه الحائرة بضع ثوان . لم ير كرسيها بعجلات من قبل . أغمز له بعيني لاحول انتباهه عن شارة عجزى . يضحك . ومن وراء ظهر والديه - المنشغلين بعراكهما اليومي -

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ - ٩٤ شارع بلس - ص.ب ٦٠٩١
بيروت - لبنان - تلفون ٣٤٤٩٩٨

يسرها أن تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ
العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .
٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته ، شعره ،
عرض مشوق لافكار الشاعر وأغراضه ومقاصده .
في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه
وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع
المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة
واحدة تصدر أجزاءها تباعا .

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية
في ٢٠٠ لوحة أكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة
مجلدات كبيرة ، أصدرتها مكتبة خياط للكتب
والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هدية عن
الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين »
الذي كان قد درس طوال أعوام مظاهر الفن العربي ،
ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي .
تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك أو مكتبك ،
وتصور أدق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون
والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ،
شارع بلس بيروت ، أو من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33

مثل قطع من حيوانات مذعورة تفرّ من جحيم
غابة تحترق ، تعود السيارات من قلب المدينة بعد
الظهيرة . ويفيض بها الشارع الطويل مرة أخرى . لكن
النوافذ هذه المرة تخلو من وجوه الصغار ، فهم يتكورون
على أنفسهم الآن فوق المقاعد الساخنة مرهقين ينضحون
عرقا .. الرضع منهم - تفوح من أفواههم رائحة حليب
مخمر ومسن مؤخراتهم روائح فاذورات لم تغسل -
يلوبون في الايدي الضجرة لنساء متعبات ساحت الاصبغ
على وجوههن واعناقهن الندية . الوجوه وراء الزجاج
تلتهب غضبا .. تشتم وتسب وتلعن ، لكن الاصوات
الآدمية تضيق بين هدير المكائن ولا يسمعا أحد ، فتروح
السيارات تنبح على بعضها بأصواتها الميكانيكية في نفاذ
صبر .. عووو ! طووووط واووو ! وفي هروبها
العجول تتزاحم السيارات ، تعتدي ، تتجاوز ، تصعد
الارصفة ، تدوس الازهار المزروعة أمام البيوت ، تسحق
الاشجار الصغيرة ، تتسلق الجدران ، تملأ الهواء برائحة
بنزينها المحترق ، وتلف المارة المدعورين واللاذنين
بالجدران بسحب من التراب ، وتشق طريقها مبتعدة في
صخب . وتتحشر سيارة لوري وسط زحام السيارات
الصغيرة المتعجلة . تبدو مثل حشرة كبيرة ميتة يدور
بها سرب من النمل ، ويعلو النباح من كل جانب . ومن
جوف سيارة صغيرة ، محاصرة في الوسط ، يتناهى
الى سمعي - مختلطا بصراخ الحشد الفاضب - صوت
طفل صغير يبكي بحرقه .

بعد نحو ساعة يهدأ الضجيج وتنحسر الموجة
بالتدريج تاركة وراءها على جانب الطريق سيارة صغيرة
معطوبة ، صاحبها يقف مصلوبا في الشمس يلوح بيده
في ضراعة يائسة للسيارات القليلة التي تخطف من
أمامه . أتأمله لحظات .. لقد أصبح مشلولاً مثلي ، لكنني
أمتلك كرسيًا يتحرك .. لعله يحسدني الآن لو رأيته .
غير أنه لم يكن ينظر صوبي .. كان يلوي رأسه صوب
الجهة المعاكسة التي تقبل منها السيارات - هاربة من
جوف المدينة - مشغولا بهزّ يده للكريات السوداء
المتحصنة وراء زجاج النوافذ . اعوفه في مكانه ينتظر ،
يهمي عليه - وعلى سيارته - الغبار المتطاير من تحت
عجلات السيارات المنطلقة في اندفاع وحشي .

أستدير بسيارتي .. وأدخل البيت لاغسل عن
رأسي ووجهي تراب الطريق ودخانه بانتظار يوم آخر .

بغداد